إثباتُ المهدوية في القرآن من خلال أهداف الاستخلاف الإلهي للإنسان في الأرض

◆ محمد مهدي حائري بور[1] ◆ ترجمة: د. محمد فراس الحلباوي[2]

■ **خلاصة**

تستندُ جميع الفرق الإسلامية إلى القرآن الكريم، وبما أنّ المهدوية من العقائد المُشتركة بين المذاهب الإسلامية، فإننا نجد الإشارة إليها في آيات قرآنية متعددة، لأنّ القرآن الكريم فيه تبيان كل شيء.

بالطبع، ينبغي التأمل في الإطار والشكل الذي ذكر فيه هذا التّبيان الإلهي، لأنّ من الجليّ أنّ كثيراً من المعارف الإلهية لم تُذكر في ظاهر الألفاظ والعبارات القرآنية، لذلك ينبغي البحث عنها بطريقة أخرى، فقد بُيّنت ضمن إطار الأهداف المتوخّاة من بعثة الأنبياء وغاية خلق الإنسان، كما أنّ عرض بحث المهدوية ومستقبل العالم في هذا السياق وبهذا التوجه، يُبرز الكثير من الآيات التي اشتملت عليه، ولن نجد تطبيقًا عمليًّا لتلك الفئة من الآيات دون تحقق المهدوية، وهو الأمر الذي تشهد عليه أحاديث وروايات كثيرة، وما كتبه المُفسرون الشّيعة والسُّنة.

في هذه الدراسة، سيتمّ إثبات نظرية المهدوية من خلال الكشف عن أهداف الاستخلاف الإلهي للإنسان في الأرض، وعلاقة المهدوية بمستقبل العالم في القرآن الكريم.

الكلمات المفتاحية: المهدوية - مستقبل العالم - أهداف الأنبياء - الدولة العالمية - المُناداة بالعدل.

1 - عضو الهيئة العلمية في مؤسسة المستقبل المضيء (مركز بحوث المهدوية) قُم المقدسة- إيران.

2 - دكتوراه في اللغة الفارسية وآدابها، أستاذ محاضر في جامعة دمشق- سوريا.

المقدمة

القرآن الكريم كتابٌ جامعٌ كامل، وقد احتضن جميع مسارات تحقّق الهداية البشرية، مُستفيدًا من جميع الإمكانات المتوفرة لدى الإنسان وعالم الوجود لهداية البشر باتّجاه الكمال، ومن جهة أخرى، مهّد الطريق لوصول البشر إلى السعادة الأبدية من خلال تبيين تاريخ الأمم السابقة، وأخذ العِبر الصحيحة واللائقة منه، والإشارة إلى عاقبة أعمال المؤمنين والكافرين وغايتها.

بعبارة أخرى، القرآن الكريم كتابٌ يُبيّن التاريخ المُنصرم كما يرسم الآفاق والمشهد المستقبلي بوضوح أيضًا، لأنّ التحليل الصحيح لماضي التاريخ البشري، والتّخطيط الصحيح لمستقبل العالم، يُمكن أن يُساعد الإنسان في فهم الهدف من خلقه ودرجات رُقيّه وكماله وقُربه من خالقه.

لكن، يبقى السؤال الرئيس هنا هو، هل اللغة القرآنية المستخدمة في تبيين التاريخ السابق، وفي رسم معالم مستقبل العالم، مُتشابهة وواحدة؟ أم أنها مختلفة؟ الجواب الصحيح عن هذا السؤال، يُمكن أن يفتح الطريق أمام الباحثين والمحققين لفهم وإدراك المفاهيم القرآنية.

ويتّضح بعد قراءة متأنّية للآيات القرآنية، أنّ أسلوب القرآن في تبيين الحقائق السالفة وتوضيحها هو بيان للمصاديق الكلية والجزئية لها، وهذا الأسلوب ينطبق على القواعد البشرية وقوانينها أيضًا، لكن عندما يتطرّق القرآن لمستقبل العالم ومصير حياة الإنسان، فإنه يتحدّث عن السُّنن، وأيضًا عن الأهداف الإلهية للخِلقة وغايتها ونتائجها، بدل ذكر المصاديق الجزئية. كما يُعطي تصوّرًا واضحًا عن المستقبل من خلال ذلك الأسلوب.

ويمُكن من خلال هذا الفهم للقرآن الكريم، البحث عن قضايا مهمة ومصيرية فيه، واستنادًا إلى

آياته فهو تبيانٌ لِكلّ شيء[1]، ولم يفرّط بأيّ شيء[2].

بعد هذا التوضيح الآنف، يمُكن القول إنّ القضية المهدوية لا يمُكن أن تكون بعيدة عن الرؤية القرآنية، وهي القاسم الاعتقادي المشترك بين المذاهب الإسلامية، والراسم للأفق الإنساني الجليّ في سائر الأديان الإلهية، وهي الهدف الإنساني الأهم والذي سيحدِّد العاقبة الحسنة للمؤمنين في هذا العالم والجزاء السيء للكافرين والمشركين، وقد عُبّر عن هذه القضية في الكثير من الآيات القرآنية خلافاً لبعض ادّعاءات مُخالفي الشّيعة، لكن، بالطبع ليس من خلال تحديد المصاديق والتصريح باسم الموعود في الإسلام، بل بالتّعريف بالسُّنن والأهداف الإلهية وتبيينها الجليّ.

لذلك، يمُكن القول في مجمل الحديث: إنّ القرآن الكريم قد استخدم في تبيين معارفه أساليب متنوعة، نذكر منها ما يأتي:

- بيان المِصداق والتّصريح بالإسم[3]
- بيان المصداق بالنّظر إلى الأوصاف والميزات[4]
- بيان السُّنن والقواعد العامة لحياة الإنسان وغاية العالم وهدفه[5].

فالقرآن يعرض غالبًا القضية المهدوية بالأسلوب الثاني والثالث[6]، سيّما بالأسلوب الثالث، ولو درسنا المهدوية بدقة من خلال الأهداف والنتائج، فإنّنا سندرك أنّ أهداف الأنبياء الكبرى في القرآن، هي عبودية البشر لله تعالى، والعدالة الشاملة والعامة، وأيضاً الآمال الكبرى المُستندة إلى فطرة البشر، والوعود الإلهية الحتمية والقطعية، وسُنّته المُبتنية على نجاة الإنسان من الظلم

1 - قال الله -تعالى-: ﴿.. وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[النحل: 89].

2 - قال الله -تعالى-: ﴿.. مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ..﴾[الأنعام: 38].

3 - مثل قوله -تعالى-: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ..﴾[الفتح: 28].

4 - مثل قوله -تعالى-: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[المائدة: 55].

5 - مثل قوله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[الأنبياء: 105].

6 - بالطبع يرى بعض العلماء والمحققين أن آيات مثل الآية 55 من سورة التوبة مثلا تتحدث بصراحة عن والإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

والحَيْف، وكذلك الوعد بسيادة الإسلام العالمية.

وبالتنسيق مع الأسس النظرية للمهدوية والتنبؤات القاطعة في هذا المجال، وبالتدقيق في الآيات القرآنية لموضوعات مثل الإسلام والمسلمين، التي تنعكس في الآيات القرآنية جميعها، نجد أنه يُمكن تحقيقها وإجراؤها في ظل العقيدة المهدوية، ولا يُمكن تحقيقها دونها.

المهدوية القرآنية هي ثمرة لأهداف الأنبياء

ذُكرت أهداف بعثة الأنبياء الإلهيين في القرآن الكريم، كما عُرضت في روايات الفريقين[1]، أهدافٌ لقيام المهدي وثورته في آخر الزمان، وبالتدقيق في هذا الموضوع والدراسة المقارنة له، يتبيّن الانسجام الكامل بين القرآن والمهدوية في أهدافهما وغاياتهما. وتُثبت هذه القضية المهمة بأنّ المهدوية قد استلهمت من الثقافة القرآنية والإسلامية الأصيلة. وأنّ ما بيّنه القرآن بكونها أهدافاً كليّة لبعثة الأنبياء لا تتحقّق إلا بسيادة المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، ولا يُمكن تطبيقها بدونه.

إذن، فتبيين أهداف الأنبياء في القرآن هو نوع من رسم معالم للحكومة المهدوية العالمية، لأنّ التحقق العملي لتلك الأهداف والغايات رهين بحكومة عالمية عادلة.

والقرآن الكريم يُركِّز في تبيينه لأهداف الأنبياء عليهم السلام على محوري العدالة والعبودية للإنسان، وفي هذا المجال سنتطرق إلى دراستهما وتطابق تلك الأهداف وانسجامها مع أهداف حكومة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

القرآن والعدالة

في القرآن الكريم ثمّة آيات مُتعددة حول العدل والعدالة وأهميتهما وآثارهما، كما يُركّز فيها على المستويات الفردية والاجتماعية المختلفة، ما يجعل منهما مطلبًا رئيسًا لها، يقول عز من قائل في آيات منها: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ**﴾[النحل:90]. ويقول في مكان آخر مُخاطبًا الجميع: ﴿**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾[المائدة:8].

1 - سيُشار إلى نماذج من هذه الروايات في نهاية الدراسة.

إنّ أمر الله بالعدالة بنحو مطلق، يعني أنه يطلب من الجميع القيام بالعدالة في جميع الحالات، ولا يرضى بالتقصير في ذلك، كما كان النبي الأكرمﷺ - بكونه الحُجّة الإلهية الكبرى والهادي للبشرية والأنموذج الأسمى والأكمل للبشرية - مأمورًا بالعدل وإجرائه في المجتمع[1]، ليُتابع الناس بعد النبي الأكرم ﷺ، وعلى ضوء التعاليم السماوية، تنفيذ العدالة وتحقق الغاية من إرسال الرسل وإنزال الكتب السماوية وليقوم الجميع بإجراء العدالة كما كان جميع الأنبياء مأمورين بإجراء العدالة الاجتماعية[2]. بالطبع، إنَّ هذه العدالة المطلوبة في القرآن لا تُحدّ بالمجتمع، بل تشمل حتى النِّطاقات الصغيرة مثل البيت والعائلة[3].

وبناء عليه، فإنّه كما صرّح القرآن، لقد بعثت السلسلة النورانية للأنبياء الإلهيين لغاية إجراء العدالة في المستويات المختلفة لحياة البشر، يعني لتحقيق العدالة الفكرية والعَقَديّة ومنع الناس عن الشرك في العبادة، وأيضاً لتحقيق العدالة الأخلاقية والحدّ من الانحرافات السلوكية، وأيضًا لتحقّق العدالة السياسية وحكومة المُنتَجبين.

وفي كلمة واحدة، لتحقيق العدالة في سائر المجالات الفردية والاجتماعية، لكن تاريخ الأنبياء يشهد على أنه ولأسباب متنوعة لم يتمكنوا من تحقيق هذا الهدف كاملاً بحيث ساد الظُّلم والحَيْف في المجتمعات البشرية، هذا في حين ترغب البشرية فطريًّا في العدالة وتُحبّ ذلك. واستناداً إلى الحكمة الإلهية ينبغي تحديد إجابة لهذه الحاجة الفطرية الخاصة بها، وبالطبع، في الظرف المُناسب واجتماع الشروط اللازمة.

---

1 - يقول القرآن الكريم في هذا المجال: ﴿.. وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾[الشورى:15].

2 - يقول عز وجل: القرآن: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحديد: 25].

3 - يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾[النساء: 3].

المهدوية محقّقة للعدالة القرآنية

بشهادة الأحاديث المتواترة لدى الفريقين، فإنّ تحقُّق العدالة العالمية في الآفاق المستقبلية في العالم، أمر قطعي وحتمي، وقد أخبر النبي الأكرم ﷺ وأئمة أهل البيت الأطهار عن مرحلة زمنية تملأ العدالة فيها الأرض برمتها، وذلك في زمن ظهور مهديّ آل محمد ﷺ[1].

وبتعبير آخر، في الآفاق المستقبلية للإسلام سُيقام حُكم عادل، وهو بتعبير النبي الأكرمﷺ وبالنقل المتواتر عن الفريقين: "يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً"[2]، يعني بظهوره ستعمّ العدالة الحقيقية العالم، وستشمل جميع أبعاد الحياة البشرية.

وببيان آخر، سيتحقّق في ذلك الحُكم، هدف الأنبياء الكبير علميًّا وعمليًّا. هذه الحكومة هي حكومة الإمام المهدي من آل محمد ﷺ التي أخبرت عنها الروايات الشّيعية والسُّنية المتواترة[3].

المهدوية والعدالة وَجْهان لِعُملة واحدة

ثمّة روايات كثيرة عن النبي الأكرم ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام تضع المهدوية والعدالة إلى جانب بعضهما، نذكر بعضًا منها:

---

1 - في كتاب «منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر» هناك روايات كثيرة من مصادر العامة، مثل: مسند البزّاز، مج1، ص-281 على ما في هامش الطبراني الكبير، صفة المهدي لأبي نعيم: على ما في عقد الدرر، أربعون أبي نعيم، على ما في كشف الغمة، المعجم الكبير، مج10، ص168، ح10229، قد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما مضمونه بشارات بظهور المهدي والعدالة العالمية في زمنه مثل الرواية المذكورة أعلاه وأيضاً نُقلت روايات كثيرة أخرى في الموضوع نفسه في مجلدات أخرى من هذا الكتاب بالترتيب عن الإمام علي عليه السلام وحتى الإمام العسكري (ع) وقد ذكرت نماذج لها في النص.

2 - من المصادر الشيعية: الغيبة للنعماني، ص81؛ كمال الدين تمام النعمة، مج1، ص22؛ أمالي الصدوق، ص36، الاحتجاج على أهل اللجاج، مج1، ص69، أعلام الورى بأعلام الهدى، ص286 و...، أيضاً من المصادر السنية: البيان في أخبار صاحب الزمان، ص482، العرف الوردي في أخبار المهدي، ص53، القول المختصر في علامات المهدي المنتظر، ص41 .

3 - أحاديث المهدي من مسند أحمد بن حنبل، ص56، عقد الدرر في أخبار المنتظر، ص39، العُرف الوردي في أخبار المهدي، ص47، الإرشاد، مج2، ص340؛ كمال الدين، مج1، ص280؛ الغيبة للطوسي، ص46 .

قال رسول الله ﷺ في تبيين حتمية ظهور المهدي عجل الله فرجه الشريف بهدف إجراء العدالة في شتّى أنحاء الأرض:

«لَوْ لم يبْق من الدنيا إلاّ يوم واحد، لَطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلاً من وُلدي يُواطئ اسمه اسمي، يملؤها عدلاً وقسطاً كما مُلئت ظلمًا وجَوْرًا»[1].

وأيضًا عن الإمام علي عليه السلام في التعريف بشخصية الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف وأهدافه، يقول:

«.. وليعزلنّ عنكم أمراء الجَوْر وليُطهِّرنَّ الأرض من كل غاش وليعملنَّ بالعدل وليقومنّ فيكم بالقِسطاس المُستقيم»[2].

وكذلك يقول: الإمام الرضا عليه السلام في تبيين اشتمال العدالة المهدوية لجميع الناس:

«..الرابع من وُلدي ابن سيدة الإماء، يُطهِّر الله به الأرض من كل جَوْر ويقدِّسها من ظلم، وهو الذي يشك الناس في ولادته، وهو صاحب الغيبة قبل خروجه، فإذا خرج أشرقت الأرض بنوره، ووُضع ميزان العدل بين النّاس، فلا يُظلم أحدٌ أحدًا»[3].

إذن، فقد ذُكر مبدأ إجراء العدالة، وأيضًا حتمية ذلك وأيضًا كمّه وكيفه واشتماله بالنسبة لسائر نطاقات حياة البشر في الروايات المهدوية التي تُبيّن هذه الحقيقة بأنّ قيام المهدي عجل الله فرجه الشريف هو استمرار لبعثة الأنبياء الإلهيين ومُتابع لها، وأنّ هذه الحركة من حيث الغاية والهدف النهائي منسجمة تمامًا مع ما ذكره القرآن الكريم بكونها هدفًا لبعثة الأنبياء. لذلك، فإنّ ادّعاءنا بأنّ القرآن الكريم قد تطرّق للمهدوية ليس تصريحًا وإنّما توصيفًا يصبّ ضمن إطار الأهداف والدوافع. وبتعبير آخر: إنّ توجّه القرآن في قضية ما يُريدها الله والناس من عدل، بالإضافة إلى تبيين أهداف الأنبياء في إجراء العدالة ضمن المجتمع البشري، لهو نوع من توصيف المهدوية بكونها المستقبل البشري الموعود.

1 - المفيد: الإرشاد، مج2، ص340.
2 - ابن ميثم البحراني: شرح نهج البلاغة، مج3، ص 9.
3 - الصدوق، الخصال، مج2، ص371.

القرآن وعُبودية البشر

لقد ذكر القرآن الكريم هدفًا مهمًا ورئيسًا آخر لبعثة الأنبياء وهو إيصال البشر إلى مقام العبودية لله، يقول عز وجلا في هذا المجال: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾[النحل:36].

وقد ذكرت هذه الغاية المهمة جدًّا في آيات أخرى من القرآن أيضًا بكونها عنوانًا لرسالة الأنبياء[1]. كما هو في الآية الشريفة: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[الذاريات: 56]. فإنّ عبودية الله هي الهدف النهائي والغاية الرئيسة للخلقة، ولهذا السّبب ينبغي أن يتوافر في التشريع الإلهي برنامج بيّن جليّ لتحقّقه الكامل، وإلا سيكون نقضًا للغرض وهذا محال بالنسبة لله.

حقيقةً، كيف يكون البشر في دائرة العبودية الإلهية وفي أيّ مسار؟ أيُمكن على الرغم من وجود موانع اجتماعية كبيرة في طريق سريان العبودية، كحُكم الطواغيت، لابدّ من مشاهدة أفق ما يُضفي الأمل على البشر لتحقيق هذا الهدف الكبير، وليجعلهم يحثُّوا الخُطى بشوق وأمل عارم نحوه؟

مُتابعة لهذا السؤال، نصل إلى هذه الحقيقة الأصيلة، وهي أنّ القرآن الكريم قد وعد إلى جانب دعوته إلى العبودية، بتحقيق مجتمع يحكمه المؤمنون ممّن يتمتّع بالأمان الكامل، ويسود فيه دين الله، وفي هذه الحالة تتوفر الشروط اللازمة والأرضية المناسبة لعبودية الناس لله، يقول عز وجل: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[النور:55].

والشاهد على ذلك، أنّ العبارة الأخيرة في الآية هي النتيجة الحتمية لهذه الوعود الإلهية، وهي تحقُّق العبودية الكاملة ورفض أيّ نوع من الشرك في المجتمع، أي مع تأسيس حكومة المؤمنين واستحكام الدين الإلهي المَرْضيّ وتوفير الأمن العام في حياة الناس، ما يُمهّد لمسار العبودية الإلهية كاملاً، وتتمّ الحُجّة على الجميع بحيث لن يبقى محلّ للكفر والجُحود.

1 - مثل سورة المائدة: 72، والأعراف: -59 -65 -73 85، المؤمنون: 23، والعنكبوت:16.

والسؤال المُهم الذي يُطرح هنا، هو مَنْ سيكون الحاكم في هذا المجتمع الإلهي، وكيف سيكون الحُكم لتتحقّق العبودية نتيجة لذلك؟

في معرض الإجابة ينبغي القول: إنّ هذه الآية الكريمة تنطبق على حكومة الإمام المهدي(عليه السلام)، والمرحلة الزمنية لظهوره من جهة القرائن الداخلية لها[1]، ومن جهة الشواهد التاريخية أيضًا[2] وأيضًا الروايات المتعددة الشارحة لهذه الآية[3]، وهي تُؤيّد هذا الموضوع بأنّ أهداف حكومة الإمام المهدي(عجل الله تعالى فرجه الشريف) متناسقة مع الوعود الإلهية وأيضًا مع غايتها – يعني تحقق العبودية المذكورة في الآية 55 من سورة النور- وقد ذكر مضمون الآية الآنفة، ونتائج حكومة الإمام المهدي(عجل الله تعالى فرجه الشريف) ومكتسبات لها في روايات الفريقين وجود وتأكيد، وتُشير إلى هذه النقطة المهمة بأنّ تيار المهدوية يسعى إلى تأسيس المجتمع المرغوب والمطلوب من قِبَل أنبياء الله تعالى، وأنّ المهدي(عجل الله تعالى فرجه الشريف) سيقوم - استنادًا إلى تلك الرسالات والمهام النبوية - بتحقيق ما كان يصبوا الأنبياء والأئمة إليه عمليًّا.

نذكر عدّة روايات تُشير إلى التناسق بين حكومة المهدي(عجل الله تعالى فرجه الشريف) والآية مدار البحث:

---

1 - مثل اشتمال الآية على الوعد الإلهي بالنسبة إلى حاكمية المؤمنين وغلبة الإسلام وأمن المسلمين، وهو بمعنى بشارة للمستقبل يستحيل على الله الخلف بها، وهي إذن لا تترك شكًّا في حتمية حصول مفاد الوعد الإلهي في الستقبل.

2 - لم يشهد تاريخ الإسلام منذ عصر حكومة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) في المدينة وحتى اليوم تحقق الوعود الثلاثة المدرجة في الآية. بالطبع بعض المفسرين من أهل السنة كالفخر الرازي ادّعى أن مضمون الوعود الإلهية في الآية قد تحقق في عهد الخلفاء الراشدين، لكن هذا الادعاء غير صحيح، لأن الإسلام لم يكن عامًا وشاملاً في ذلك الحين، ولم ترتفع مخاوف المسلمين وقلقهم كما ينعكس ذلك في هذه الرواية: "... قال المفضّل: فقلت يا ابن رسول الله، فإنّ هذه النواصب تزعم أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي (عليه السلام)، فقال: لا يعدي الله قلوب الناصبة، متى كان الدين الذي ارتضاه الله ورسوله متمكناً بانتشار الأمن في الأمة، وذهاب الخوف من قلوبها وارتفاع الشك من صدورها في عهد واحد من هؤلاء، وفي عهد علي (عليه السلام) مع ارتداد المسلمين والفتن التي تثور في أيامهم والحروب التي كانت تنشب بين الكفار وبينهم ..." انظر: الصدوق، الخصال، مج2، 356.

3 - مثل هذه الرواية التي أوردها الطبرسي تحت هذه الآية: عن علي بن الحسين (عليه السلام) أنه قال: هم والله شيعتنا أهل البيت، يفعل الله ذلك بهم على يدي رجل منّا، وهو مهدي هذه الأمة؛ وهو الذي قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) لو لم يبق من الدنيا إلا يوم، لطوّل الله ذلك اليوم، حتى يلي رجل من عترتي اسمه اسمي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظُلماً وجوراً. انظر: الطبرسي، أعلام الورى بأعلام الهدى، مج3، 117.

أوّلاً: رُوي عن الإمام الباقر(عليه السلام) أنه قال حول الآية: ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾[الحج: 41]، هذه لآل محمد والمهدي وأصحابه، يُملّكهم الله تعالى مشارق الأرض، يظهر الدين ويُميت الله عز وجل به وبأصحابه البدع والباطل، كما أماتَ السَّفهة الحقّ حتى لا يُرى أثرٌ من الظلم[1].

ثانيًا: وقد روي عنه أنه (عليه السلام) قال: «القائم منّا، منصور بالرُّعب.. يبلغ سلطانه المشرق والمغرب، ويظهر الله عز وجل به دينه على الدّين كله ولو كره المشركون...»[2].

ثالثًا: نُقل عن الإمام عليّ(عليه السلام) أنه قال: «.. وبنا يُدفع [يُرفع] الله الزمان الكَلِب... ولو قد قام قائمنا...ولذهبت الشّحنا من قلوب العباد، واصطلحت السباع والبهائم، حتى تمشي المرأة بين العراق والشام لا تضع قدمها إلا على النبات، وعلى رأسها زينتها لا يُهيّجها سبُعٌ ولا تخافه»[3].

رابعًا: رُوي عن الإمام الصادق(عليه السلام): «إذا قام القائم حكم بالعدل وارتفع في أيامه الجَوْر وأمنت به السُّبل، وأخرجت الأرض بركاتها ورُدَّ كلّ حقّ إلى أهله، ولم يبْق أهلُ دين حتى يظهروا الإسلام ويعترفوا بالإيمان، أما سمعت الله سبحانه يقول: ﴿**أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**﴾[آل عمران:83]»[4].

يُلاحظ في هذه الروايات التركيز على أمور، كسيادة المهدي(عجل الله تعالى فرجه الشريف) على كل الأرض، وعُمومية الدّين، وانتشار الحق والأمان للناس، وتوفير الأرضية المناسبة للعبودية الإلهية الخالصة، وهي الحالات نفسها التي ذُكِرت بكونها وُعودًا إلهية للمؤمنين الصالحين في الآية 55 من سورة النور.

1 - القمِّي، تفسير القمي، مج2، ص 78.
2 - الصدوق، الخصال، مج1، ص 331 .
3 - الصدوق، الخصال، مج2، ص626.
4 - المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، مج 2، ص 284.

وبُناء عليه، فإنّ الروايات الآنفة والشارحة للآية (55) من سورة النور، تكشف حقيقة أنّ المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف هو الموعود الإلهي نفسه الذي سيُحقّق أهداف الأنبياء والغايات والأهداف الإلهية من الخِلقة، ويمُكننا بهذا التعبير أن ندّعي أنّ الآية (55) من سورة النور، هي من الآيات التي تحدثت عن دولة المهدي الموعود عجل الله تعالى فرجه الشريف وبشّرت به.

لذلك، فإنّ ثمة هدفين رئيسين لبعثة الأنبياء في القرآن الكريم، هما نشر العدل والعبودية لله، وقد ذُكر بجلاء هذان الهدفان في الثورة العالمية للإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف وقيامه، وهكذا فإننا نستنتج أنّ المهدوية هي ثمرة أهداف الأنبياء الإلهيين.

إنّ الفكر المهدوي في الإسلام، هو نتيجة لترشيد بعثة الأنبياء في الفكر القرآني، بعبارة أخرى، ما ذكره القرآن الكريم من العبودية والطاعة وأيضًا العدالة وأبعادها المختلفة وعدّها أهدافاً كبيرة للأنبياء الإلهيين، وأيضًا ما قدّمه بكونه مطالبات فطرية للبشر، لا يتحقّق عملاً وإجراءً إلا بالسيادة المطلقة للوليّ الإلهيّ وحُجة الحق، وهذا النوع من التعبير، يعني رسم القضية المهدوية في القرآن ضمن إطار الأهداف والبرامج.

المهدوية هي تشييد لحُكومة الإسلام العالمية

لإثبات المهدوية بالرؤية القرآنية، ثمّة تعبير آخر وهو عبارة عن تقديم دولة المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف بكونها الأفق القرآني لانتشار الإسلام في العالم. بعبارة أخرى، ما يذكره الشّيعة بعُنوان المهدوية ويؤمنون به، هي البشرى الكبرى التي يقدمها القرآن الكريم بالحكم الإسلامي العالمي.

فبرُؤية القرآن وبشهادة آيات عديدة منه، سيعمّ الإسلام شتّى بقاع الأرض يومًا ما، وهذا وعدٌ إلهي وقَدرٌ حَتْمي. ومن جهة أخرى في الأفق المستقبلي للحكومة العالمية الحقّة التي ستعمّ أرجاء العالم، ليس ثمّة حكومة إلا حكومة المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، كما يُؤمن جميع المسلمين - استناداً إلى نبوءات النبي صلى الله عليه وآله وسلم - بهذه الحكومة العالمية العادلة. وبناء عليه، يستند الوعد القرآني إلى حاكمية الإسلام العالمية، المنطبقة على العقيدة الإسلامية المهدوية. ومن اللازم أن نستعرض بعض الشواهد حول انطباق تلك البشارة القرآنية على العقيدة الإسلامية.

البِشارة القرآنية بعالمية الإسلام

لقد أخبر القرآن الكريم في آيات كثيرة، أنّ الإسلام سيسيطر على العالم برمته، وسيظهر على سائر الأديان، ومن بين تلك الآيات آيةُ الإظهار التي سنتحدث عنها باختصار، يقول عز وجل: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾[التوبة: 33].

جديرٌ بالقول: إنّ هذه البشارة ذُكرت أيضًا بالعبارة نفسها في سورة الصف الآية 9، وأيضًا في سورة الفتح الآية 28، وهذا التكرار هو تأكيد مضاعف على التحقق الجازم لما تُفيده هذه الآية الكريمة.

دراسة لمفهُوم الغلبة في الآية

ثمّة اختلاف في آراء المفسرين حول القصد من غلبة الإسلام على سائر الأديان، و متى سيحصل ذلك، لكن يتّضح من الشواهد والقرائن الموجودة في هذه الآية وأيضًا الروايات الشارحة لها وآيات أخرى في القرآن الكريم[1]، أنّ المقصود من هذه البشارة هو الوعد الإلهي بعالمية الإسلام والنّصر القطعي والسيادة الكاملة له على سائر الأديان، وهذا الأمر يتحقّق في عصر ظهور الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف.

يقول المرحوم الطبرسي في تفسير هذه الآية:

"معناهُ ليُعلي دين الإسلام على جميع الأديان، بالحُجة والغلبة والقهر لها حتى لا يبقى على وجه الأرض دين إلا مغلوبًا، ولا يغلب أحدٌ أهل الإسلام بالحُجة وهم يغلبون أهل سائر الأديان بالحُجة، وإما الظُّهور بالغلبة، فهو أن كل طائفة من المسلمين قد غلبوا على ناحية من نواحي أهل الشرك، ولحقهم قَهر من جهتهم، وقيل أراد عند نزول عيسى بن مريم عليه السلام لا يبقى أهل دين إلا أسلم أو أدّى الجزية، عن الضحاك قال أبو جعفر عليه السلام: «إنّ ذلك يكون عند خروج المهدي من آل محمد، فلا يبقى أحدٌ إلاّ أقرّ بمحمد صلى الله عليه وآله، وهو قول السّدي. وقال الكلبي لا يبقى دين إلا ظهر عليه الإسلام، وسيكون ذلك، ولم يكن بعد، ولا تقوم الساعة حتى يكون ذلك، وقال المقداد بن الأسود سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: لا يبقى على ظهر الأرض بيت مَدر ولا وَبر إلا أدخله الله

1 - من بينها الآية 55 من سورة النور، التي سنعرض توضيح لها في بقية الدراسة.

كلمة الإسلام، إمّا بعزّ عزيز، وإمّا بذُلٍّ ذليل، إما يُعزِّهم فيجعلهم الله من أهله فيعزّوا به، وإما يُذلّهم فيدينون له»[1].

وفي التفسير الأمثل، إطلاق ما هو موجود في الآية، وأيضًا استعمال كلمة إظهار بمعنى الغلبة الخارجية في حالات مشابهة من الآيات، وهي شاهد على إرادة الغلبة الظاهرية في الآية محلّ البحث، وقد فسّر الآية هكذا:

بعضهم عدّ هذه الغلبة غلبة منطقية واستدلالية فحسب، ويقول لقد حصل هذا الأمر...، لكن بدراسة الحالات التي استعملت فيها مادة الإظهار في القرآن تظهر أن هذه المادة قد ذكرت بمعنى الغلبة الجسدية والقهر الظاهري مثل: ﴿**إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا**﴾[الكهف:20]، وأيضًا قوله عز من قائل: ﴿**كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً..**﴾[التوبة: 8]. وبدهيّ أنّ الغلبة في هذه الحالات هي غلبة عملية وعينية. والأصحّ هو أن نعدّ الانتصار والغلبة الآنفة، غلبة من جميع الجوانب، لأنها تنسجم أكثر مع مفهوم الآية المطلقة من أي جانب أيضًا، يعني سيأتي يوم يغلب فيه الإسلام من الناحية المنطقية والاستدلالية، ومن ناحية النُفوذ الظاهري، سيسُود على سائر أديان العالم ويُسيطر عليها جميعًا[2].

القرينة الأخرى المكنونة في هذه الآية الكريمة، أنّ غلبة الإسلام من حيث المنطق والاستدلال، كانت منذ إشراقة شمس الإسلام، ومنذ ذلك الحين، نفذت كلمة التوحيد في قلوب الناس، ولأنّ الكفار والمشركين عجزوا عن مجابهة المنطق الإسلامي الأسمى والغالب، فقد كالوا تُهمًا جوفاء لنبي الإسلامﷺ مثل: كاذب وساحر وشاعر ومجنون، ليمنعوا نفوذ كلمة الإسلام والنبي، ويُبْعدوا الناس عنه (صلوات الله عليه).

هذا في حين إنّ الآية محلّ البحث تعود إلى أواخر عهد الرسالة في موارد نزولها الثلاثة[3]، وأنه

1 - الطبرسي، أعلام الورى بأعلام الهدى، شرح الآية 33 من سورة التوبة.

2 - مكارم شيرازي، تفسير الأمثل، مج7، ص-371 372 .

3 - نزلت هذه الآيات في: 111 من سورة الصف، و112 من سورة الفتح، و114 من سورة التوبة، انظر: العلوم القرآنية، ص75.

لا معنى لأن يبشّر القرآن الكريم في هذا الظرف الزمني بغلبة منطق الإسلام على سائر الأديان، بل ينبغي أن تكون هذه البشارة الإلهية للغلبة العينية والنّصر الخارجي والسيادة الشاملة للإسلام، وهو الأمر المتوقع تحققه في المُستقبل (وليس حين نزول الآيات).

رأي مفسري أهل السّنة:

احْتمل الفخر الرازي ثلاثة معاني في تفسير آية الإظهار والمعنى المقصود من الغلبة، وقد اختار في النهاية معنى الغلبة الخارجية فقال: هذا الظهور (إما) بالحُجة أو بالوفور والكثرة أو بالغلبة والاستيلاء، ولأن الآية في مقام البشارة، فينبغي أن تُبشر بأمر ما لم يحصل حتى الآن، في حين إنّ الحجة وكثرة الدين الإسلامي، كان محددًا ومعلومًا أثناء نزول الآية، إذن ينبغي أن تحصل الغلبة والاستيلاء في المستقبل، وهو أمر لم يتحقّق حتى الآن[1].

عدّ الطبريّ الغلبة على الأديان، بمعنى إبطال جميع الأديان عدا الإسلام، وقال إنّ هذا سيحدث حين نزول عيسى عليه السلام[2]. كما ذكر الماتريدي في الوجه الثاني من معاني الإظهار في هذه الآية: يعني أنّ الإسلام سيغلب جميع أتباع الأديان الأخرى، لدرجة ينتصر فيها أهل الإسلام ويغلبون... وذلك في وقت نزول عيسى عليه السلام، إذ سيغدو أتباع جميع الأديان تابعين لدين واحد وهو الإسلام[3].

وكلام هذين المفسرين الكبيرين من أهل السُّنة، هو أوّلاً، تأييد للمقصود من الإظهار في هذه الآية، وهي الغلبة الخارجية وهيمنة الإسلام الشاملة، وثانيًا، أنّ هذا الأمر لم يتحقق بعد، وسيقع في آخر الزمان.

كما ذكر القرطبي تعبيراً مشابهًا في تفسيره لهذه الآية، فقد صرّح أن نزول عيسى عليه السلام سيكون عند خروج الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف. يقول: قال أبو هريرة والضحاك: هذا عند نزول عيسى عليه السلام وقال

1 - الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، مج16، ص 32.
2 - الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، مج26، ص 69.
3 - الماتريدي، تأويلات أهل السنة، مج5، ص 360.

السّدّي: ذاك عند خروج المهدي، لا يبقى أحد إلا دخل في الإسلام.

جديرٌ بالقول، إنّ القرطبي تطرق إلى شخص الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف متابعاً لهذا الكلام: وقيل: المهدي هو عيسى فقط وهو غير صحيح لأنّ الأخبار الصِّحاح قد تواترت على أنّ المهدي من عترة رسول الله صلى الله عليه وآله، فلا يجوز حمله على عيسى عليه السلام. والحديث الذي ورد في أنه «لا مهدي إلا عيسى»، غير صحيح[1].

وكذلك السيوطي، - وهو من كبار علماء أهل السُّنة - ينقل رواية عن جابر حدّد فيها معنى الإظهار بالتأكيد على شمولية أهل الإسلام وانْهزام أتباع سائر الأديان الأخرى، ومن بينهم اليهود والنصارى[2].

رؤية المعصومين حول الآية:

عُدّت الغلبة أيضًا في روايات عديدة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في الآية الشريفة محلّ البحث، بمعنى الغلبة النهائية وحاكمية الإسلام الشاملة، بحيث تمحو أي نوع من الشّك والترديد، من هذه الروايات نذكر:

الأولى: يقول الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية الآنفة: «عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿**هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾[التوبة: 33]، قال: «والله ما نزل تأويلها بعد، ولا ينزل تأويلها حتى يخرج القائم عجل الله فرجه الشريف، فإذا خرج القائم عجل الله فرجه الشريف لم يَبْق كافر بالله العظيم ولا مُشرك بالإمام إلا كَره خروجه، حتى لو كان كافرًا أو مشركًا في بطن صخرة، قالت: يا مؤمن في بطني كافر فاكْسرني واقْتله»[3].

---

1 - انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، نفسير سورة التوبة الآية 33.

2 - السيوطي، الدر المنثور، مج3، 231.جدير بالذكر، أن مفسرين كبار آخرين مثل: الثعلبي (الكشف والبيان، مج5، ص 35)، ابن أبي حاتم (تفسير القرآن العظيم، مج6، ص 1786)، ابن الجوزي (زاد المسير، مج3، 290)، وأبو حيان الأندلسي (البحر المحيط، مج5، 34) قد عدّوا الإظهار بمعنى الغلبة الظاهرية وحاكمية الإسلام على سائر الأديان، وانتهاء أتباع سائر الأديان، ويُؤمن أغلبهم أنّ هذا الأمر سيحدث في زمن نزول عيسى عليه السلام.

3 - العروسي، نور الثقلين، مج3، 108، شرح الآية. وتعبير المُشرك بالإمام يعني المخالف للإمام والذي عُدّ في الروايات في مستوى الشرك، انظر: الكليني، الكافي، مج1 ص 196.

الثانية: سأل الإمام علي عليه السلام أصحابه عن الآية الآنفة: «أظهر ذلك بعد؟ قالوا نعم، قال: كلاّ فوالذي نفسي بيده، حتّى لا يبقى قرية إلا وتُنادي بشهادة أن لا إله إلا الله ومحمد رسول الله صلى الله عليه وآله بُكرةً وعشيًّا»[1].

الثالثة: عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن عليه السلام، قلت: هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق؟ قال: «هو الذي أمر رسوله بالولاية لوصيه، والولاية هي دين الحق». قلت: ليُظهره على الدّين كلِّه؟ قال: «يُظهره على جميع الأديان عند قيام القائم عليه السلام».[2]

الرابعة: عن الإمام الحسين عليه السلام قال: «منّا اثنا عشر مهديًّا أولهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وآخرهم التاسع من وُلدي وهو القائم بالحق، يُحيي الله تعالى به الأرض بعد موتها، ويُظهر به دين الحق على الدين كلّه، ولو كره المشركون، له غيبة يرتدُّ فيها قومٌ، ويثبت على الدين فيها آخرون»[3].

يُستنتج بالتّدقيق في هذه الروايات، أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام قد حدّدوا معنى الإظهار في الآية 33 من سورة التوبة، بمعنى الغلبة الخارجية والسُّلطة الظاهرية.

بناء عليه، فإنّ الآية الشريفة طبقًا لتفسير الأئمة عليهم السلام أيضًا بمعنى حكومة الإسلام العالمية، التي أخبرت عنها هذه الروايات، التي تتحدث عن دولة المهدي الموعودة عجل الله تعالى فرجه الشريف في آخر الزمان.

وعد استخلاف المسلمين وسيادتهم

ثمّة حالات أخرى لآيات أيضًا، تُقدّم لنا البشارة القرآنية بالنسبة للسيادة النهائية للإسلام في

1 - انظر: الكاشاني، الصافي، شرح الآية:33 من سورة التوبة.

2 - انظر: الكليني، الكافي، مج1، 431. جدير بالذكر، إنه فضلاً عن هذه الروايات ثمة روايات أخرى أيضاً في تفسير البرهان في شرح هذه الآية، كما أن استنادنا إلى روايات أهل البيت(عليهم السلام) هو للفهم الدقيق للآية لأنه وطبق بيان رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث الثقلين هم صنو القرآن الكريم ومعصومون عن الخطأ وكلامهم حجة.

3 - الصدوق، عيون أخبار الرضا، ج2، ص 69.

المستقبل تنسجم كليًّا مع الروايات المتعلقة بالحكومة العالمية للمهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف. إحدى هذه الآيات وأهمها وأكثرها صراحة الآية 55 من سورة النور التي سنتحدث عنها بإيجاز.

هاجر المسلمون - بعد طيّهم لمرحلة من الحرمان والاستضعاف في مكة - إلى المدينة وظهرت انفراجات في حياتهم ونَجَوا من بطش مشركي قريش وظلمهم المباشر، لكنهم كانوا لا يزالون يتعرضون لأذى المشركين في ذلك الزمن، وكانت أرواحهم وأموالهم في معرض الهجوم الخَطِر من المشركين، وقد فُرضت عليهم حروب مُتعددة، وقد استمرت هذه التهديدات بعد ذلك ولازالت حتى اليوم، تُواجه المسلمين في مناطق مختلفة من أصقاع الأرض. لكن القرآن الكريم بشّر المسلمين خاصة، بمستقبل سيحظون فيه بدولة كريمة وسيُكتب الغلبة للإسلام في العالم وسيعيش المسلمون في أمن كامل وشامل، يقول عز من قائل: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[النور: 55].

توضيح مفاد الآية وتفسيرها برأي مُفسِّري الفريقين

قيل في شأن نزول هذه الآية:

عندما هاجر النبي صلى الله عليه وآله والمسلمون إلى المدينة واستقبلهم الأنصار بكل حفاوة، وانبرى كل العرب لمُعاداتهم، كانوا مضطرين لعدم الغفلة عن أسلحتهم بتاتاً، فكانوا ينامون الليل مع أسلحتهم وينهضون من نومهم مُمسكين بها (كانوا في حالة استعداد كامل)، فصعب الأمر على المسلمين، وتحدث بعضهم بهذا الأمر علنًا، مُتسائلا: إلى متى سيبقى الأمر كذلك؟ هل سيأتي زمان نحظى فيه بليلة مفعمة بالراحة والسكينة ويسودنا الاطمئنان وراحة البال، وألا نخشى أحداً إلا الله؟ فنزلت الآية الآنفة وبشرتهم بأنه سيأتي زمان كهذا[1].

1 - الشيرازي، تفسير الأمثل، مج14، ص527. وقد ذكر ذلك عدد من المُفسرين الشيعة وأهل السُّنة مثل: الطبرسي في: (مجمع البيان، مج7، 239) والسيد قطب (في ظلال القرآن، مج4، ص2529) والقرطبي في (الجامع لأحكام القرآن، مج12، ص 297) والسيوطي في (الدر المنثور، مج5، ص55) (مع قليل من الاختلاف) في تفاسيرهم.

رأي العلامة الطباطبائي (رحمه الله)

أما العلامة الطباطبائي، فقد ألقى نظرة أكثر عمقًا وأعمل كثيراً من الفكر في الآية فَفَتَّق منها نقاطًا أدقّ وقد عبرّ عن زوايا متنوعة للآية بهذا الشكل:

هذه آية مُفعمة بوعدٍ جميل ورائق للمؤمنين ممّن لديهم عمل صالح إذ تُشيّد لهم دعائم المجتمع الصالح الخاص بهم عما قريب، وتضع الأرض تحت تصرفهم وتُمكّن لهم دينهم، وتستبدل أمنهم بالخوف الذي كان لديهم، أمن لا يجعلهم خائفين من المنافقين وكيدهم، ولا من الكفار ومنعهم، ليعبدوا الله بحرية ولا يشركوا به أحداً... والمقصود من الخلافة هو توريثهم الأرض وتمكينهم منها، كما قال عز وجل في هذا المعنى: ﴿**إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[الأعراف:128]، وأيضًا قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾[الأنبياء:105].

وتمكين الدين عبارة عن العمل به في المجتمع، يعني ألاّ يحدّه كُفر وألا يُستهان به، وأن تكون أصول دينه محلّ اعتقاد الجميع، وألاّ يكون ثمة اختلاف وتخاصم فيه، والمقصود من دينهم، ذلك الدّين الذي ارتضى لهم وهو الدين الإسلامي، وفي عبارة ﴿**وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا**﴾[النور:55] المراد من الخوف هو الخوف الذي كان لدى المؤمنين في صدر الإسلام من الكفار والمنافقين.

وقد اختلف المفسرون في معنى عبارة: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ..**﴾[النور:55]، ومفهومها، لكن ما يبدو من سياق الآية الشريفة أنها تتحدث بدون شك عن بعضٍ من أفراد الأمة وليس جميعها، وليس عن أشخاص محدّدين من الأمة، وهؤلاء الأفراد هم عبارة عمن كانوا مصداقاً للآية ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾، والنّص يصبّ في هذا المعنى.. والمُراد من الاستخلاف لهم في الأرض هو نظير استخلاف أسلافهم والأمم السابقة من أصحاب القوة والشكيمة التي ورثوها.

والمقصود من تمكين الدين المرضي لهم في الأرض - كما مرّ سابقاً - هو أن دينهم المُرتضي يمكنّهم، بحيث لا يزلزل دينهم حتى مع اختلافهم في الأصول وتساهلهم في إجراء الأحكام

والعمل بفروعها، وتبقى اجتماعاتهم بريئة من لوثة النفاق دائماً. والمُراد من تبديل خوفهم إلى أمن، هو أن يُظلّل الأمن والسلام مجتمعاتهم، بحيث لا يخشون على دينهم ودنياهم مِنْ أعداء الداخل أو مِنْ أعداء الخارج، ولا مِنْ أعداء العلن، ولا من أعداء الخفية. وما قاله بعض المفسرين من كَوْن المُراد من الخوف هو الخوف من أعداء الخارج، كما كان خوف المسلمين في الصدر الأول من الكفار والمشركين، الذين كانوا يَصْبُون لإطفاء نور الله ويُبطلوا دعوة الدّين الحقّة، هو كلام لا يُعتدّ به، وليس لديهم أيّ دليل مُعتبر على كلامهم، لأنّ لفظ الآية مطلق وليس ثمة قرينة تُثبت ادّعاءهم.

وفضلاً عن ذلك، فإنّ الآية الكريمة في مقام الامتنان، وما هي المِنّة التي منّها الله على المجتمع لكي لا يتسلّط العدو الخارجي عليه، في حين نجد أنّ الفساد قد أحاط عُمْق المجتمع. وتُهدّد أنواع البلاءات ذلك المجتمع من كل صوب، بحيث لا يبقى أمنٌ لأرواح الأفراد فيه، ولا لعرضهم ولا لمالهم. والمقصود من أنهم يعبدون الله ولا يشركون به أحداً، هو المعنى نفسه الذي يدل اللفظ عليه حقيقة، وتلك العبارة، هي أنّ الإخلاص في العبادة يعمّ، وتُهدّ أركان أي كرامة غير كرامة التقوى.

وما يُستنتج من سائر هذه المواضيع، هو أنّ الله سبحانه وتعالى يَعِدُ من آمنوا وعملوا صالحًا بتشييد مجتمع لهم عمّا قريب يتّصف بالصلاح التام، مُطهّر من عار الكفر والنفاق والفِسق. ولم يَرَ العالَم منذ بعثة النبي الأكرم ﷺ وحتى الآن مجتمعاً كهذا، ولن يكون له مصداق إلا في عصر المهدي عجل الله فرجه الشريف، لأنّ ثمّة أخبار متواترة عن النّبي الأكرم ﷺ والأئمة عليهم السلام تحدثت عن خصائصه، وتُخبر بظهور هذا المجتمع في زمنه..»[1].

الرّوايات التفسيرية لهذه الآية:

في تأييد تفسير العلامة الطباطبائي(رحم الله) وسائر المفسرين، يمُكن الالتفات إلى الروايات المفسِّرة لهذه الآية أيضًا، وهي التي تعدّ عصر ظُهور الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف مصداقًا للآية الشريفة:

1 - انظر: الطباطبائي، تفسير الميزان، ج5، ص199، تفسير الآية 55 من سورة النور بإيجاز.

فعن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام: في قوله: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[النور: 55]، قال: «نزلت في القائم وأصحابه»[1] وقد تلا الإمام السجاد عليه السلام هذه الآية وقال: «هو والله شيعتنا، أهل البيت يفعل الله ذلك بهم على يدي رجل منا. وهو مهدي هذه الأمة، وهو الذي قال رسول الله صلى الله عليه وآله لو لم يبق في هذه الدنيا إلا يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يلي رجل من عترتي، اسْمه اسْمي، يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما مُلئت ظُلمًا وجَوْرًا. ورُوي مثل ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام[2].

كما رويت الرواية نفسها عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام أيضًا. يقول الطبرسي بعد نقله لهذه الروايات:

بالنّظر إلى هذه الروايات، فإنّ المُراد من ﴿**الّذينَ آمنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ**﴾ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام. وتشتمل الآية على بشارة استخلافهم وسطوتهم في البلاد، وأنّ الخوف سيرتفع عنهم حين يقوم مهديّهم.. وعلى هذا إجماع عترتهم الطاهرة، وإجماعهم حُجّة بدليل كلام النبي صلى الله عليه وآله إذ قال: «إنيّ تارك فيكم ما إنْ تمسّكتم بهما لن تضلوا أبدا، كتابُ الله وعترتي أهل بيتي، ولن ينفصلا حتى يردا عَليَّ الحوض»، وأيضًا (الشاهد على هذا القول)، لم يجْرِ التمكين في الأرض بالنحو المطلق في الماضي، إذن ينبغي أن يحصل ذلك في المستقبل، لأَنّ الله لا يُخلف الوعد..[3].

بالنّظر إلى ما قيل في توضيح الآيات الآنفة، ثبت أن المهدوية ودولة الإسلام العالمية، هُما

1 - النعماني، الغيبة، ص240، وقال في رواية أخرى: هذه الآية (حتى عبارة من قبلهم) نزلت بشأن علي بن أبي طالب عليه السلام والأئمة من أبنائه ومتابعة للآية التي قال فيها (وَلَيمكِّنَنَّ لَهمْ دِينَهم .... لا يُشْركون) قال: المقصود من هذا القسم من الآية هو ظهور القائم عليه السلام.. انظر: القمي المشهدي، تفسير كنز الدقائق، مج9، ص 339.

2 - الطبرسي، مجمع البيان، مج7، ص 239.

3 - الطبرسي، مجمع البيان، ص 240.

وجهان لعُملة واحدة، والمهدوية في الحقيقة ترسم مخطط دولة الإسلام العالمية التي ذُكرت صراحة في القرآن الكريم، وبتعبير آخر، فإنّ الله سبحانه وتعالى يُوصِّف حكومة المهدي عليه السلام بتبيينه لدولة الإسلام العالمية.

النتيجة

عُرض فيما سبق، النظرة العامة والشاملة في القرآن إلى قضية المهدوية، التي ذكرت من خلال دراسة الآيات ذات الصِّلة والتي تُركّز على مستقبل العالم والمصير الحَسَن للمؤمنين والعاقبة المشؤومة للظالمين والمُستكبرين، وأيضًا تحليل السُّنن الإلهية المبنية على نجاة المظلومين والمستضعفين.

وقد اتّضح من خلال هذه الدراسة، أنّ المهدوية قد ذُكرت في آيات كثيرة من القرآن الكريم، بحيث لا يُمكن تفسير هذه المجموعة من الآيات إلا من خلال وُجود الإمام المهديّ عجل الله تعالى فرجه الشريف في آخر الزمان، وقيامه ونهضته العالمية. لذلك، يمكن القول: إنّ المهدوية قد تمّ الحديث عنها في القرآن الكريم بالإشارة، وضمن الآيات التي عرضناها، وهذا ما أكدته أيضًا أقوال مُعظم مفسري الشّيعة وأهل السُّنة، كما عرضناها بالتفصيل. أما أهداف المشروع المهدوي المستقبلي، فهي نفسها الأهداف والغايات التي نزلت الرسالات الإلهية لتحقيقها على الأرض، وبَشّر بها جميع الأنبياء والرّسل عليهم السلام عبر التاريخ..

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: أسعد محمد، بيروت: المكتبة العصرية، ط- 1419هـ.
- ابن الجوزي، عبد الرحمن محمد، زاد المسير، بمسعى: عبد الرزاق، بيروت: دار الكتاب العربي، ط- 1422هـ.
- ابن كثير الدمشقي، إسماعيل بن عمرو، تفسير القرآن العظيم، بمسعى: شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، ط- 1419هـ.
- ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة، بيروت: دار الثقلين، ط1 - 1420 هـ.
- أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، البحر المحيط، بيروت: دار الفكر، ط1-1420هـ.
- البحراني، السيد هاشم، البرهان في تفسير القرآن، قم -إيران: مؤسسة بعثت، 1416 هـ.
- الثعلبي، أحمد بن إبراهيم، تفسير الثعلبي (الكشف والبيان)، بمسعى: ابن عاشور، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط- 1422هـ.
- السيد قطب، إبراهيم الحسيني، في ظلال القرآن، القاهرة: دار الشروق، 1425هـ.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الدر المنثور، قم- إيران: مكتبة آية الله المرعشي النجفي، ط1 - 1404هـ.
- الشريف الرضي، محمد بن حسين بن موسى، نهج البلاغة، (دون تاريخ أو طبعة).

■ الصافي الكلبايكاني، لطف الله، منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر، دار كوثر للنشر، ط3 - 1430هـ.

الصدوق، محمد بن علي بن بابويه، الخصال، تحقيق: علي أكبر غفاري، جامعة المدرسين، ط1-1983م.

■ الطباطبائي، السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ترجمه بالفارسية: السيد محمد باقر الموسوي الهمداني، قم، مكتب النشر الإسلامي: ط5 - 1995م.

■ الطبرسي، فضل بن الحسن، الأمالي، بيروت: الأعلمي، ط5 - 1400هـ.

■ الطبرسي، فضل بن الحسن، جوامع الجامع، طهران: نشر جامعة طهران، ط- 1406هـ.

■ الطبرسي، فضل بن الحسن، كمال الدين وتمام النعمة، طهران: المكتبة الإسلامية، ط2 - 1395هـ.

■ الطبرسي، فضل بن الحسن، مجمع البيان، بيروت: دار المعرفة، ط1406-هـ.

■ الطبرسي، فضل بن حسن، أعلام الورى بأعلام الهدى، قم- إيران: مؤسسة آل البيت(ع)، ط- 1417هـ.

■ الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن، بيروت، دار المعرفة، 1412 هـ.

■ عروسي حويزي، عبد العلي بن جمعة، نور الثقلين، قم – إيران: دار إسماعيليان للنشر، ط- 1415هـ.

■ الفخر الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط- 1415 هـ.

■ القرطبي، محمد بن أحمد، تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط- 1415هـ.

■ القمي المشهدي، محمد بن محمد رضا، تفسير كنز الدقائق، تحقيق: حسين دركاهي، طهران: وزارة الإرشاد، ط- 1989م.

■ القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القميّ، تحقيق: الجزائري، قم- إيران: دار الكتاب، ط- 1984م.

الكاشاني، الفيض، الملا محسن، الصافي، تحقيق: حسين أعلمي، طهران، الصجر، ط- 1415هـ.

■ كوراني، عليّ، معجم أحاديث الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، قم- إيران: مؤسسة المعارف الإسلامية، ط2 - 1428هـ.

■ الماتريدي، محمد بن محمد، تأويلات أهل السّنة (تفسير الماتريدي)، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1 - 1326هـ.

■ المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدُرر أخبار الأئمة الأطهار (عليهم السلام)، طهران: الكتب الإسلامية، ط2-1984م.

■ معرفت، محمد هادي، علوم قرآنى [العلوم القرآنية]، قم- إيران، مؤسسة التمهيد للثقافة والنشر، ط- 2002م.

■ المفيد، محمد بن محمد، الإرشاد في معرفة حُجج الله على العباد، قم- إيران، دار المفيد، ط1 - 1993م.

■ مكارم شيرازي، ناصر، تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، طهران: إيران: دار الكتب الإسلامية، ط- 1996م.

النعماني، محمد بن إبراهيم، الغيبة، تحقيق: فارس حسون، قم- إيران: أنوار الهدى، ط1 - 1422هـ.